التاريخ مفهومه ، نظرياته ، منهجيته

مفهوم التاريخ

حاول المورخون تحديد مفهوم التاريخ، وكان لهم في هذا الأمر وجهات نظر عدة، فالتاريخ يعني من الناحية اللغوية الزمن وبيان الوقت، أما بالنسبة لمعناه العام فيرى البعض أن التاريخ ماضي الإنسان وآخرون يرون أنه أحداث الماضي .. الخ.

وسنحاول عرض بعض الجوانب المتصلة بالتاريخ.

* تدل معنى كلمة تاريخ علماً أنها مجموعة الحوادث التي ظهرت في حياة البشرية ومعرفة هذه الحوادث، فكلمة تاريخ (Historia) يونانية الأصل تدل جذورها على معنى الرؤية، حيث أن كلمة (Histor) تعني الرؤية والمشاهدة أو الاستقصاء بهدف المعرفة (عبد ، ١٩٨١،١).

* هناك من يرى أن كلمة تاريخ هي لفظ عربي قديم، يعني الإعلام بالوقت أي تحديد زمن الأحداث وأوقات حدوثها (الجمل ، ١٩٨٢،٨).

* يرى البعض أن معنى التاريخ يكمن في أن الماضي ليس ماضيا ميتا بل حيا في الحاضر. فالأحداث الميتة هي تلك الأحداث التي لا يستطيع المورخ إدراكها وفهم الأفكار التي تقف وراءها، فالتاريخ كله هو تاريخ الفكر.

* تعني كلمة تاريخ الأحداث التي وقعت في الماضي والتي تقع في الحاضر والتي يمكن أن تقع مستقبلا، وبالتالي يعنى التاريخ دراسة الأحداث أو هو الأحداث ذاتها، والحادثة هي كل ما يطرأ من تغيير على الأرض أو في الكون له صلة بحياة البشر. والحادث قد يحدث فجأة كوقوع زلزال، أو قد يكون عنيفا كحدوث حرب، أو قد يكون بطيئا كتطور بعض جوانب الحياة الاجتماعية، وقد يحدث دون أن يدرك أحد أهميته كميلاد طفل قد يصبح يوما من صناع التاريخ. وبغض النظر عن طبيعة الأحداث فإن ما يجمع ما بينها جميعها أن الأوضاع قبل حدوثها تختلف عن الأوضاع بعد حدوثها، فصورة العالم ليست هي ذاتها قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها،

وصورته قبل أحداث الحادي عشر من أيلول (تدمير مركز التجارة العالمي) تختلف عن صورته بعدها.

• التاريخ هو فرع من المعرفة الإنسانية يهدف جمع المعلومات عن الماضي وتسجيلها وتفسيرها، أي الربط بين الأحداث وتوضيح العلاقة السببية بينها، أي أنه يفسر التطور الذي طرأ على حياة الحضارات المختلفة، ويبين لماذا حدث وكيف حدث.

• التاريخ ليس ترجمة لسير الشخصيات التاريخية من قادة وحكام وزعماء- الخ فقط، وإنما هو تاريخ الشعوب أيضاً.

• يمكن أن نصل مما سبق إلى أن التاريخ هو سجل لمسيرة البشرية والمصدر الأساسي للمعرفة الإنسانية، يعكس التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية...الخ التي مرت بها البشرية منذ أن بدأ الإنسان يترك آثاره على الأرض وحتى نهاية الدنيا. فهو يتناول حياة الإنسان من حيث هو إنسان يدرك الزمن، يصنع التاريخ ويصنعه التاريخ.

يجدر التساؤل لماذا يهتم الناس بدراسة التاريخ ؟

ربما يعود الأمر إلى سببين أساسيين : (غنيم ، حجر ، ١٩٩٣، ٢٢)

الأول: نفسي: أي يعود لعدم قناعة الإنسان أن تقتصر معرفته على تلك الفترة الزمنية القصيرة التي يعيشها، وتصور مستقبل البشرية .

الثاني: عقلي: أي رغبة بعض الناس فهم أحداث التاريخ وتحليلها، وتفسير مواقف التاريخية، والاستفادة من التجارب التاريخية الماضية التي وقعت في

علمية التاريخ

طرحت تساؤلات عدة حول علمية التاريخ، واختلف المؤرخون والعلماء منذ أواخر القرن التاسع عشر فيما إذا كان التاريخ علماً أو لا. والمقصود بذلك دراسة ذات موضوع محدد، وطريقة ثابتة تساعد في الوصول إلى مجموعة من المبادئ والقوانين، والقانون هو تلك العلاقة القائمة بين مجموعة من العناصر التي تجمعها ظاهرة واحدة.

لقد رأى بعض العلماء أن التاريخ ليس علماً ، فالأحداث التاريخية لا يمكن إخضاعها للتجربة واستخلاص النتائج وصولاً إلى القوانين العلمية، وهناك من يرى أن التاريخ علم لكنه ليس قائماً على التجربة، بل على النقد والتحقيق والدراسة والبحث عن الحقيقة والالتزام بالموضوعية، ولا يمكن الحديث عن قوانين ثابتة تحكم حركة التاريخ، فالتاريخ لا يعيد نفسه فأحداثه لا يمكن إعادتها وأبطاله ليسوا أحياء، ولا يعني بالضرورة الربط بين الظواهر المختلفة في الوصول إلى قوانين ثابتة تحكم حركة التاريخ. ويرى فريق ثالث أن التاريخ علم لأنه يساعد على الربط بين الظواهر الاجتماعية المختلفة ويساعد على الوصول إلى القوانين التاريخية، وأن هذه القوانين قائمة فعلاً وتؤثر في حركة البشرية ، لأن الحياة تسير وفق قوانين ثابتة ، لكنه لم يتم اكتشاف قانون من هذه القوانين في مجال الدراسات الاجتماعية بعد .

هناك رغم ذلك فروق بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية (غنيم، حجر، ١٩٩٣، ٢٧) . وأهم هذه الفروق :

-الزمن عامل أساسي في حركة العلوم الإنسانية ، لكن العلوم الطبيعية عندما تبحث في طبيعة الإنسان قد لا تهتم بدراسة أثر الزمن عليه.

-العوامل المتشابهة في العلوم الطبيعية تؤدي إلى نتائج متشابهة مهما اختلف الزمان والمكان، بينما الأحداث المتشابهة والمتقاربة في العلوم الإنسانية يمكن أن تؤدي إلى نتائج مختلفة.

-القوانين في العلوم الإنسانية لا تتصف بصفة الأبدية بل هي عرضة للتغيير النسبي مثل القوانين في العلوم الطبيعية ، لكن التغيير فيها يتم بسرعة أكبر مما هو عليه الأمر في العلوم الطبيعية .

يمكن القول رغم ما ذكرناه من فروق إن الدراسات الاجتماعية تأثرت بالنزعة الطبيعية ، حيث انعكس منهج العلم الطبيعي على التاريخ فأصبح منهج البحث التاريخي، يتصف بأنه (الشيخ ، ١٩٨٨، ١٣).

-منهج تجريبي استقرائي غير مباشر ، حيث لا يخضع التاريخ للتخريب .

-جمع مادة تاريخية فيها مجموعة كبيرة من الأحداث التاريخية .

-حصر الواقعة المراد دراستها زمانياً ومكانياً حتى يستطيع الباحث دراستها

-الوصول إلى أحكام كلية يمكن الاستفادة منها في الحاضر والمستقبل.

فلسفة التاريخ

تعني فلسفة التاريخ النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية ومحاولة معرفة العوامل الأساسية التي تتحكم في سير الوقائع التاريخية والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر الأجيال، فالتاريخ يسير وفق مخطط معين وليس بطريقة عشوائية. (الخضيري، ١٩٨٢، ٦٥).

يعد (ابن خلدون) أول من استخدم تعبير فلسفة التاريخ وميز بين الظاهر والباطن في التاريخ، حيث يقول عنه: في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول والسابق من القرون الأولى... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفية الوقائع وأسبابها عميق.

كما يعد الفيلسوف الفرنسي (فولتير) أول من صاغ مصطلح فلسفة التاريخ في القرن الثامن عشر.

فحاول دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف، تلك الدراسة القائمة على التحليل والنقد والرافضة للخرافات، والتي تنقح التاريخ من المبالغات والأساطير بهدف نشر الحرية وتنوير العقل.

مقولات فلسفة التاريخ:

مقولة الكلية:

لا تقف فلسفة التاريخ عند حادث معين أو عصر ما أو مجتمع خاص حيث تركز فلسفة التاريخ على التكامل بين الأجزاء وترابطها، فيتجاوز الفيلسوف الوقائع الجزئية إلى التاريخ العالمي ويمتد تفسيره إلى المستقبل.

مقولة العلية:

تحاول فلسفة التاريخ اختصار العلل الجزئية للأحداث التاريخية بعلة واحدة، أو سبب واحد يتم في ضوئها تفسير، تاريخ العالم، فيتم إعادة تشكيل وقائع التاريخ لتكوين صورة عقلية. فمثلاً حاول (كارل ماركس) في نظريته المادية التاريخية إرجاع الأحداث التاريخية إلى سبب واحد هو السبب الاقتصادي أو المادي.

شروط تكوين نظرية فكرية في فلسفة التاريخ:

يمكن الوصول إلى نظرية في فلسفة التاريخ إذا تحققت الشروط التالية: (الشيخ ١٩٨٨، ٢٢-٢٣)

١- حالة الانحلال أو التدهور:

إن وصول مجتمع من المجتمعات إلى حالة الانحلال والتدهور السياسي الاقتصادي أو الاجتماعي، يؤدي إلى التفكير بالأسباب المؤدية إلى ذلك وكيفية تجاوزها.

٢- قلق على المستقبل:

يدفع القلق على المستقبل إلى التفكير بالماضي، حيث يرتبط المستقبل بالماضي عن طريق الحاضر بشكل وثيق في فلسفة التاريخ، ولا يصل التاريخ إلى الفكر الفلسفي دون وعي بالمستقبل مما يثير الخوف على المصير.. ويستند القلق على المستقبل إلى معاناة الإنسان في الحاضر، فيستعيد صفحات الماضي المشرقة لكي يشعر بالاطمئنان.

٣-التاريخ العالمي:

إن معالجة الأحداث التاريخية بشكل مجزأ لا يساعد على الوصول إلى نظرية في فلسفة التاريخ، لذلك يجب أن يكون تاريخ الإنسانية تاريخاً كلياً، والتاريخ العالمي يمتاز بالوحدة ووضوح الهدف ونسيج أحداثه تنطوي على معنى مفهوم.

١ نظرية التعاقب الدوري للحضارات (نظرية ابن خلدون)

يعد ابن خلدون مؤسس فلسفة التاريخ، واتسمت كتاباته بالواقعية والاستقرائية، وكانت نظريته في الأطوار التي تمر بها الدول، وهذه الأطوار متعاقبة أو دورية تبدأ بالبداوة ثم الحضر فالتدهور.

- **طور البداوة:** يطلق ابن خلدون هذا المصطلح على الشعوب والأمم والدول التي لا تخضع لقوانين حضارية ويقاس بمرحلة تسبق التحضر، وتعتمد على التعاون في التحصيل المعاشي، وتحول السكون والدعة ثم الترف إذا زاد ما تحصل عليه عن حاجاتهم. وتحكم المجتمع رابطة العصبية ويسهم في تقويتها عاملان رئيسان هما: احترام القبيلة لشيخها، ثم حاجتها المستمرة للدفاع عن ذاتها.

ويتصف أفراد المجتمع في هذا الطور بالخشونة وشظف العيش والشجاعة والشهامة والغيرة .. الخ.

- **طور التحضر:** يتم في هذا الطور تأسيس الدولة وينتقل المجتمع من الحياة البدوية إلى الحياة المتمدنة، ويحدث ذلك عند تغلب القبيلة على دولة مجاورة في مرحلة الهرم، ويتوقف تقدم الحضارة في الدولة على أمور عدة منها:

• مزايا الأرض: تعد الأرض مصدراً أساسياً للإنتاج، ويأتي التحضر نتيجة العمل المنظم المتواصل للإنسان في استثمار الأرض، والإنتاج سواء أكان زراعياً أم صناعياً من أسس التحضر وقوة الدولة، واعتبر أن العمل أساس الإنتاج والإنتاج أساس التحضر، فإن العمل في الأرض وما يرتبط به من صناعات يستدعي الاستقرار، الذي هو أول أسس التحضر.

• مزايا الحكومة: اعتبر ابن خلدون أن الحكومة القوية هي من أسس التحضر، والإنسان المستقر يحتاج إلى حكومة عادلة توفر الأمن والحماية، وقوية تدافع عن

مصالحه، ومدركة لأهمية التجارة فتشجعها وتحميها، وإذا امتلكت الحكومة هذه المواصفات تساعد على الاستقرار. ويرى ابن خلدون أن الدولة قوة أعلى من المجتمع، وهي نتاج المجتمع في درجة معينة من تطوره.

- **طور التدهور:**

هو الطور الثالث من مراحل الحضارة، إن الدولة فيه أو الحضارة تصل إلى مرحلة الهرم، ويعد الترف العامل الحاكم في الوصول إلى هذا الدور.

يفسر ابن خلدون دور الترف في تدهور الدولة أو الحضارة من خلال العوامل الاقتصادية والأخلاقية، وسنوضح هذه العوامل:

١- العامل الاقتصادي: يرى ابن خلدون هذا العامل من عوامل الترف التي تؤدي إلى تدهور الدولة، فطبيعة الملك تقتضي الترف في الطعام واللباس والآنية وتشييد المباني ... الخ. فلا تعود الجباية تفي بخراج الدولة مما يستوجب الزيادة فيها، وتستحدث أنواعا جديدة منها فيقل الإعمار ويزداد الترف، كما أن زيادة احتياجات الحاكم تؤدي إلى إسرافه في فرض الضرائب فيحدث اختلال اقتصادي يؤذن بانهيار الدولة.

٢- العامل الأخلاقي والنفسي:

إن الغنى الذي يصل إليه البدو يدعوهم إلى السكون والدعة، ويؤدي بهم الترف إلى العكوف على الشهوات، وتتفشى فيهم الاطماع الجشعة، وتضعف العصبية والشجاعة، فالترف مفسد للخلق ومظهر للسكون والدعة، ودليل على ميل النفس على الدنيا والانغماس في متاعها.

إذاً وضح ابن خلدون أن عوامل انهيار الدولة تتركز في عاملين أساسين هي العامل الاقتصادي والعامل النفسي، فهو يرى أن الملك مبني على أساسين: الأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالخير، والثاني المال وهو قوام أولئك الجند، وإذا أصاب الدولة خلل فإنه يحدث في هذين الأساسين.

نظرية العناية الالهية

سادت فكرة العناية الإلهية في معظم الحضارات منذ القديم، حيث نلاحظ أن المؤرخين اليونان والرومان سلموا بوجود قوة إلهية تدعم إرادة الإنسان الحرة، وعندما ولدت الديانة المسيحية نظرت إلى النشاط الإنساني على أنه مسير بالعناية الإلهية، فأعمال الإنسان كلها هي تنفيذ للمشيئة الإلهية وبالتالي أعفى الإنسان من صنع التاريخ وقد آمن المسلمون بالمشيئة الإلهية أيضاً.

وتقوم العناية الإلهية على مبدأ يعطي الله كل الفعل في الأحداث التاريخية، ويبعد الإنسان عن صنع تاريخه، فالأحداث التاريخية تخضع لمشيئة الله وحده دون تدخل الإنسان الذي هو مسير وليس مخيراً، وإن وقائع التاريخ تخضع للمشيئة الإلهية، وتتكر القول بالمصادفة لأنها تعني الفوضى (القديس أوغستين:٣٤٥-٤٥٠م).

ألف سان أوغستين كتابين: هما مدنية الله و"الاعترافات"، أوضح فيهما أن العناية الإلهية هي التي تسير أحداث التاريخ إلى أهدافها، وكانت أفكاره عبارة عن محاولة للنظرة الكلية إلى التاريخ وتفسير لمسار أحداثه.

نظرية التقدم

ركز فلاسفة التنوير المنادون بالتقدم المستند على الفعل الإنساني ومقدرته في إحداث الإنجازات، ودعوا إلى علمنة نواحي الحياة البشرية والفكر الإنساني، وجعلوا كل شيء موضع نقد. وقد قلل أصحاب نظرية التقدم من شأن الماضي أو القديم، وأبرزوا ملامح العصر الجديد والمتفق مع روحهم العلمية. وكانوا يؤمنون بإمكانية تحويل النشاط الإنساني إلى المعقول بعد أن كانت مسيرته عمياء في الماضي. وانتقدوا رجال الدين ثم الدين المسيحي الذي لم يكن في نظرهم عاملاً من عوامل تشكيل الحضارة.

ربما رأى أصحاب هذه النظرية أن النظم الاجتماعية والمجتمعات الإنسانية تتقدم من حالة التأخر والبدائية إلى حالة التمدن والتحضر، وتكون فيها المرحلة اللاحقة أرقى من السابقة وأكثر تقدماً وتهيئ الظروف لمرحلة أكثر رقياً منها ذاتها، وأبرز هذه النظرية..

فولتير: ١٦٩٤-١٧٨٧م

أنتج فولتير خلال حياته مجموعة كبيرة من المؤلفات بلغ عددها أكثر من تسعين كتاباً ومقالة، اهتم فيها بدراسة تاريخ الحضارات باعتبارها من صنع الشعوب وبخاصة أن التاريخ كان يركز على تاريخ الحكام والقادة والمعارك.. الخ

وأبرز مؤلفاته:

"رسائل عن الأمة الانكليزية"، "الرسائل الفلسفية"

وأبرز أفكاره:

* الاهتمام بدراسة الحضارات وحركة الشعوب وتاريخ المجتمع ومسيرة البشرية من البربرية إلى المدنية.

* التاريخ الحقيقي عند فولتير هو تاريخ الشعوب جميعها التي لها تاريخ، وليس تاريخ أوربا فقط.

* مهاجمة العصور الوسطى وإشاداته بتاريخ اليونان والرومان وعصر النهضة والتنوير.

* الهجوم على الكنيسة ورجال الدين .

كوندروسيه ١٧٤٣-١٧٩٤م

فليسوف موسوعي فرنسي عاش السنوات الأولى من الثورة الفرنسية الكبرى وشارك في أحداثها، وضع مؤلفات عدة أهمها: مسودة لوحة تاريخية لتقدم العقل

الإنساني، رصد فيها تطور الإنسان منذ الخليقة وحتى عصره أي القرن الثامن عشر، الذي مر بالمراحل التالية:

المرحلة الأولى: هي مرحلة بدائية عاش فيها الإنسان في مجتمع عشائري، وفي هذه المرحلة صنع الإنسان أدواته بنفسه.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الرعي، دجن فيها الإنسان الحيوانات.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الزراعة واختراع الكتابة، حيث ظهرت آلات زراعية بدائية، وظهرت الكتابة التي اقتصرت على الكهنة.

المرحلة الرابعة: وتمتد من الكتابة وحتى تقسيم العلوم، حيث ظهرت علوم الرياضيات والفلسفة والسياسة، ونشأ الفكر الحر في اليونان.

المرحلة الخامسة: وهي مرحلة تقدم العلوم وبخاصة على يد اليونانيين ثم تدهورها في عهد الرومان بعد انتشار المسيحية.

المرحلة السادسة: تمتد من تدهور العلوم إلى نهضتها، فقد تدهورت العلوم بسبب غزو القبائل الجرمانية للإمبراطورية الرومانية، ثم تقدمت في عهد المسلمين الذي حملوا التراث اليوناني ونقلوه إلى أوربا.

المرحلة السابعة: تمتد من بعث العلوم إلى اختراع الطباعة، وتميزت هذه الفترة بالتحرر من سلطة الكنيسة واحتكاك أوربا بالشرق نتيجة الحروب الصليبية، ونشأ الجامعات.

المرحلة الثامنة: وتمتد هذه المرحلة من اختراع الطباعة إلى التخلص من السلطات التقليدية، وحدثت في هذه الفترة حركة الإصلاح الديني البروتستانتي، وتم اختراع آلة الطباعة، واحتل المسلمون القسطنطينية، واكتشف العالم الجديد.

المرحلة التاسعة: تميزت هذه الفترة بظهور علماء أهمهم: (فرنسيس بيكون صاحب المنهج التجريبي، و(غاليليو) الذي أحدث ثورة في عالم الفلك، و(ديكارت

صاحب المنهج الرياضي، وظهر فلاسفة التقدم والتنوير أمثال:(فولتير) و(مونتسكيو)، وسادت أفكار الحرية والمساواة نتيجة الثورتين الأمريكية والفرنسية.

النظرية الدياليكتيكية المثالية

- هيغل: ١٧٧٠-١٨٣١م

تساءل هيغل عن طبيعة الروح أو ماهية العقل، ورأى أن طبيعة الروح هي عكس طبيعة المادة، فإذا كانت ماهية المادة العقل فإن ماهية الروح هي الحرية، وتكون الروح حرة عندما تعتمد على نفسها فقط أي تكون الذات والموضوع معاً، وتاريخ العالم هو عبارة عن صراع من جانب الروح لكي تصل إلى مرحلة الوعي الذاتي. وينظر هيغل إلى التاريخ على أنه:

١-التاريخ له ظاهر وباطن فظاهره الأحداث التي تبدو دون هدف وباطنه تلك الروح التي تجعل مساره محكما ومعقولاً.

٢-يستند منطق التاريخ إلى صراع الأضداد، فالروح لا تكشف عن نفسها إلا من خلال الصراع، فالدياليكتيكية هي سر حركة التاريخ ومنطق الكشف عن تعاقب حوادثه.

وحدد هيغل مناهج كتابة التاريخ بالمناهج التالية:

التاريخ الأصلي: يقوم المؤرخ بكتابة الأحداث التي يعيشها وينقل ما يراه أمامه أو يسمعه من الآخرين .

التاريخ النظري: يتجاوز المؤرخ في هذا المنهج أحداث عصره، إلى عرض تاريخ عصر من العصور أو أمة من الأمم. فيجمع المادة التاريخية ويصنفها وفق أسلوبه الخاص.

التاريخ الفلسفي: ويهتم بدراسة التاريخ من خلال الفكر، لأن التاريخ هو تـاريخ الإنسان والفكر جوهري بالنسبة له، وما يميز البشر هو الفكر أو الوعي أو العقـل أو الروح ، ويبدأ التاريخ الحقيقي للإنسان بظهور الوعي.

نظرية المادة التاريخية

كارل ماركس ١٨١٨ -١٨٨٣م

تنسب نظرية المادية التاريخية إلى كارل ماركس، وقد قام بقلب ديالكتيك هيغـل الذي يبدأ بالفكر ويتدرج إلى الطبيعة، فنادى بأن التاريخ هو الأعمال التي يعبر فيهـا الإنسان عن أفكاره، وعبر ماركس عن أفكاره من خلال مؤلفات عدة منها:

(نقد الاقتصاد السياسي) و (رأس المال)، وشارك مع فريديك انجلـز: ١٨٢٠-١٨٩٥م ، في إصدار (البيان الشيوعي).

يخضع المنهج الماركسي في تفسير التاريخ إلى القوانين التالية:

-قانون التغير من الكم إلى الكيف: يرى ماركس أن التغيير الذي يحـدث فـي الظواهر الطبيعية والإنسانية هو من الكم إلى الكيف ويتم طفرة دون تدرج. ويؤكـد ماركس أن التغير المفاجئ أو الطفرة في تطور المجتمع هو الثورة، فهي نتيجة تغير كمي تدريجي، من ناحية، وتغير كيفي مفاجئ نحو الوضع الجديد، فتختفي أوضـاع قديمة وتبرز أوضاع جديدة، أي ينهار النظام القديم ويظهر نظام جديد مكانه.

-قانون تداخل الأضداد وصراعها: يؤكد ماركس أن التناقض هو القوة المحركة للتاريخ الطبيعي والإنساني، والحركة لا تتم إلا بوجود الأضداد، فعل ورد فعل، دفـع وجذب ... الخ، والتناقض هو سر التطور.

-قانون نفي النفي: تتضمن مراحل الحياة في علم الطبيعة وعالم الإنسان سلسلة من نفي النفي، فكل مرحلة تنفي سابقتها ، فتحدث عملية هدم وبناء فيظهر ما هو أفضل وأكثر تنوعاً.

نظرية التحدي والاستجابة

أرنولد توينبي: ١٨٨٩-١٩٦١م:

يذكر توينبي أن الظروف الصعبة تتحدى قدرة الإنسان وتدفعه للاستجابة. وتكون هذه الظروف طبيعية وبشرية، ويحدث ذلك على النحو الآتي:

إذا كانت البيئة الطبيعية قاسية فقد تدفع الإنسان نحو تغييرها أو تعديلها، فالبيئة القاسية أو الصعبة والموطن الجديد يحفزان الإنسان نحو مواجهة التحدي عن طريق إثارة قوى الإبداع فيه، وإذا لم تحدث لديه استجابة ناجحة فقد يكون مصيره الانقراض والزوال.

-أما إذا تعرض المجتمع لعدوان خارجي أو تهديد مستمر، فإن ذلك يشكل قوى ضاغطة تفترض الاستجابة له بإزالة هذا العدوان أو التهديد المستمر.

وتتخذ علاقة الاستجابة بالتحدي أشكالاً عدة هي:

-يجعل قصور التحدي الطرف الآخر عاجزاً عن الاستجابة الناجحة.

-يحطم التحدي الشديد روح الطرف الآخر.

-يصل التحدي إلى درجة معقولة تستثير طاقات الإبداع وتتم استجابة ناجحة.

ويذكر توينبي أن الحضارات تمر بثلاث مراحل هي:

* مرحلة ولادة الحضارة أو تكوينها: إن ولادة الحضارة هي عملية خلق وأن الصعوبات هي التي تحفز الإنسان على العمل وبالتالي صنع تاريخه، تتكون والميسر هما عدوا الحضارة.

* مرحلة نمو الحضارة: يطرح توينبي تساؤلاً حول مواصلة الحضارات كلها التي تغلب صعوبات الميلاد على نموها الطبيعي حتى تصل إلى السيطرة على البيئة التي تعيش فيها، ويرى أن بعض الحضارات لا تنجح في ذلك ، فهناك إلى جانب الحضارات المتطورة والعقيمة حضارات متعطلة بقيت على قيد الحياة ولكنها لم تتابع نموها(الاسكيمو – البدو) .

يرى توينبي أن من معايير الحضارة أن يكون هناك نمواً ينقل المجتمع من حالة تحدٍ إلى استجابة، ثم تحديات جديدة واستجابات جديدة، ويتجلي النمو بازدياد سيطرة الإنسان على البيئة، والنجاح الناتج عن كل تحدٍ واستجابة هو التقدم الحضاري .

* مرحلة تدهور الحضارة وانهيارها: يؤكد توينبي أن الانهيار هو محصلة الفشل التي يتمثل بفقدان القدرة على الخلق والإبداع وضمور القوة الدافعة عند الجماهير، مما يؤدي إلى تمزق المجتمع من الداخل.

منهجية البحث التاريخي

يهدف البحث التاريخي إلى صنع معرفة علمية ترتبط بالماضي، وهذه المعرفة علمية لأنها تستخدم طرائق عقلانية للوصول إلى الحقيقة، ويمكن تقسيم عملية البحث التاريخي إلى الخطوات التالية:

اختيار موضوع البحث:

يبدأ البحث التاريخي باختيار موضوع البحث أو بطرح مشكلة، وينبغي على الباحث أن يعرف كيف يطرح مشكلة ، أو يسأل الماضي عن إجابة لمشكلة لها أهمية واقعية وقيمة وجودية. ويفضل عند اختيار الباحث لموضوع بحثه أن يراعي الشروط التالية:

- أن يكون الاختيار ذاتياً.
- أن يحمل الموضوع مغزى بالنسبة للماضي والحاضر.
- أن يتولد لدى الباحث رغبة وميل نحو الموضوع، وأن يكون استجلاء الحقيقة هو الهدف سواء أكان منسجماً مع عواطفه أم لا.
- أن تقدم المشكلة المطروحة جديداً إلى المعرفة التاريخية، أي تكون المشكلة المطروحة جديدة في عنوانها وفي مضامينها.
- أن تتلاءم المشكلة مع قدرات الباحث وظروفه وإمكاناته المادية والفكرية والمدة الزمنية اللازمة لإنجاز البحث.
- أن تتوفر المصادر والمراجع القادرة على توضيح المشكلة، واكتشاف أبعادها.
- أن يتم اختيار الموضوعات التي تبعد عن الباحث زمنياً خمسين عاماً لإبعاد الباحث عن التأثيرات الذاتية التي تعيق عملية التقييم السليم والموضوعي، ولأن

بعض دور الأرشيف لا تسمح للباحثين بالاطلاع على الوثائق إلا بعد مرور هذه الفترة الزمنية لأسباب سياسية واقتصادية وعسكرية ... الخ. ولكن هذا لا يمنع من تناول بعض القضايا المعاصرة ولكنها لا تدخل في الاختصاص التاريخي بالمعنى العلمي الدقيق.

جمع المصادر:

إن عملية جمع المصادر صعبة ومعقدة، وتعد من أهم أعمال الباحث، فالتاريخ يصنع بالوثائق وهي كل ما يمكن أن يكشف لنا شيئاً عن ماضي الإنسان، وإن أي شي في العالم يمكن أن يصبح شاهداً على أية مسألة كانت.

ويصعب تحديد مصادر التاريخ بشكل دقيق، وقد صنفها المؤرخون إلى مجموعتين هي الروايات والمخلفات.

وتعرف الروايات بأنها المصادر التي رغب الإنسان بنقلها إلى من بعده، وقد قسمت إلى ثلاثة أنواع:

الروايات الشفوية، والروايات المكتوبة أو المطبوعة، الروايات المصورة.

أما المخلفات فهي البقايا التي خلفها الإنسان دون قصد فيه: بقايا الأداب ، اللغة، القوانين، العادات....الخ.

ويمكن تقسيم المصادر إلى مصادر أولى ومشتقة، والمصادر الأولى هي الأصول أو المصادر الأصلية، وهي مخلفات مادية مباشرة معاصرة للحقائق المدروسة، وقد تكون نقوشاً أو مباني أو مذكرات أو قوانين أو معاهدات... الخ.

أما المصادر المشتقة فهي تلك المقتبسة من المصادر الأولى. ويمكن تصنيف المصادر في ثلاث مجموعات: (الصباغ،١٥٤،١٩٨٠).

*__الوثائق المكتوبة أو المطبوعة__: وهي كل ما خلف الإنسان الماضي من مدونات كتابية ومطبوعة والتسجيلات الصوتية. والوثيقة المكتوبة هي الوثيقة التي

تتضمن ألفاظاً ذات معنى وعبّر عنها برموز، تحل بالقراءة، ومن الوثائق المكتوبة نذكر:

- وثائق الأرشيفات الحكومية: وتتضمن الأوامر والبلاغات والقرارات والمراسيم في جميع دوائر الدولة وفي إطار الدواوين الاختصاصية من مالية وقضائية واقتصادية وعسكرية... الخ. أي بمعنى آخر تشتمل على كل الأوراق المتبادلة بين الدولة والمواطنين وبين الدولة والدول الأخرى.

- أرشيفات المنظمات الاجتماعية: وهي سجلات الجمعيات والنقابات والأحزاب .. الخ ولها أهمية كبرى في دراسة تاريخ المجتمع وتطوره.

- المدونات الإعلامية: وهي جميع المدونات التي هدفها إعلام الجمهور عن الأحداث الجارية والنشاطات الاجتماعية والصحف والإذاعة.... الخ .

- التقارير السرية: وهي كل التقارير التي قد تكون حكومية رسمية وضعها كبار رجال الدولة وهم يمارسون أعمالهم ، وتقارير خاصة كاليوميات والمذكرات الخاصة والمراسلات الشخصية.

- المؤلفات العلمية والتاريخية: تشكل المعرفة المختلفة مصادر هامة للباحث كالمصادر التاريخية والمؤلفات الأدبية والجغرافية والفلسفية...الخ، أما المؤلفات التاريخية فهي تلك المؤلفات التي دونها أصحابها لإيصال معلوماتها إلى الأجيال اللاحقة.

*الوثائق الأخرى:

هي المخلفات المحسوسة كالمباني بأنواعها (قصور، معابد، مساجد،... الخ) والطرق، والنقود والصور والنحت، والتصوير الفوتوغرافي والسينمائي والوثائق الناطقة من اسطوانات وأشرطة... الخ.

- الرواية المباشرة أو المصدر الحي: تشكل الرواية المباشرة مصدراً من مصادر البحث التاريخي، بخاصة عندما يختار الباحث مشكلة تاريخية معاصرة، فيقوم بالاتصال بالناس المعاصرين لها أو الذين عايشوها.

نقد المصادر:

يقوم الباحث بعد عملية جمع المصادر بعملية تحليل تقود إلى الحقيقة التاريخية ويطلق عليها أسم النقد . ويتم النقد من خلال عمليتين أساسيتين هما: النقد الخارجي، والنقد الداخلي أو الباطني.

النقد الخارجي:

يتمثل في التساؤل حول أصالة الوثائق المستخدمة وأساس الدراسة ومصدرها، ويتضمن الأمور التالية:

• إثبات صحة الوثيقة: وتهدف هذه العملية إلى إثبات أن الوثيقة غير مزيفة أو مشوهة، وكان يمارس الملوك وغيرهم التزييف لتعظيم ذواتهم وتمجيدها. ويمكن التعرف على صحة الأصول التاريخية عن طريق الاستفادة من العلوم المساعدة للتاريخ كعلم الوثائق، علم الفيلولوجيا، علم الخط ... الخ.

• تثبت تاريخ الأصل: يهدف هذا العمل إلى معرفة البعد الزمني بين تاريخ وقوع الأحداث الواردة في الوثيقة وتاريخ تدوينها لتحديد الزمن الذي يرجع إليه. فهناك بعض الوثائق لا تحمل تاريخاً دقيقاً أو أغفلت التاريخ مطلقاً، وإن كان هناك تاريخ فينبغي على الباحث ألا يثق به دون نقد.

• تثبيت مكان الوثيقة: يعد تحديد مكان تدوين الوثيقة ذا أهمية لا تقل عن أهمية تحديد زمانها، ويتم بذلك توضيح فيما إذا دون شاهد العيان أخباره في مكان حدوثها أم لا، وينظر إلى المكان ليس بالمفهوم الجغرافي وإنما بالمفهوم الاجتماعي، فمعرفة الوسط الذي دونت فيه الوثيقة: هيئة دينية، عشائرية ... الخ أكثر أهمية من المكان الجغرافي، فمعاينة المؤرخ للأحداث بشكل مباشر أمر هام وضروري، ويمكن تحديد

مكان الوثيقة من خلال تحليل محتواها وتعرف مركز الاهتمام بها ومن خلال دراسة الصفات الخارجية للنص فالخط والمادة التي دون عليها، إضافة إلى اللغة فلكل إقليم خصائص لغوية معينة.

• تحديد هوية المؤلف: يقوم الباحث بالبحث في الوثيقة وما تتضمنه من عناصر التعرف بهوية المؤلف فيعمد إلى تدقيق الخط واللغة، ومضمون الوثيقة، ومقارنتها بوثائق أخرى متقاربة زمنياً ومكانياً ومعروفة الهوية.

•البحث عن موارد الأصل: يعني هذا الأمر التأكد إذا كان المؤلف شاهداً مباشراً للحدث وعندها يؤخذ بشهادته، وإن لم يكن فينبغي التحفيظ، إذاً الأمر الهام للباحث هو تعرف مدى أصالة النص، وإذا كان منقولا فمعرفة الأصل، ومن المعروف أن ناسخي كل منهما مستقل عن الأخر ولا يرتكبان الخطأ ذاته، وكذلك الأمر بالنسبة للشاهدين فإنهما لا يريان الأمر ذاته ويصفانه بالعبارات ذاتها.

الأخطاء المشتركة الأمر.؟ يرجى تدقيقها من المؤلف

•إعادة النص إلى أصالته وترميمه: يقوم الباحث بعد تجميع الوثائق بتحقيق النص وإحيائه وعملية نشر النص أو طبعه، يعني نقله احتمال الخطأ، والخطأ هو كل صيغة لم يستطع المؤلف كتابتها صحيحة، أو لم يكن له إرادة في كتابتها، وقد تكون الأخطاء إرادية أو لا إرادية. ويتم الكشف عن الأخطاء باستخدام النقد، إن النصوص بغالبيتها تحتوي أخطاء لابد من الكشف عنها ثم تصحيحها.

النقد الداخلي أو الباطني:

يرتبط بالتساؤل حول صحة محتوى الوثيقة وموضوعية المعلومات التي تحتويها: عمّ تتكلم الوثيقة؟ ما وجهة النظر التي تتبناها ؟ وفي أي سياق ؟ ودراسة الوثائق يتم من خلال خطوتين:(جيدير، ٢٠٠٤، ١٣٦-١٣٨)

١- تفسير النص والنقد الإيجابي: ينبغي وصف الوثائق المتوافرة وشرحها في أدق التفاصيل، ويتمثل ذلك أساساً في شرح الكلمات التقنية، والوقائع اللغوية، والتلميحات السياسية والثقافية.. الخ

وهذا هو الأساس المسمى اللغوي لتحليل الوثائق و لاسيما فيما يتعلق باللغات القديمة، ومسوغ ذلك أنّ اللغة تتطور باستمرار وأن استخدام الكلمات يرتبط إلى حد بعيد بالعصر والسياق.

وفي إطار هذا النقد من الضروري التقيد بقاعدة السياق التي تنص على أن معنى الكلمات ينتج عن الجملة التي تظهر فيها قبل كل شيء أي عن سياقها اللساني. وهذا المعنى يتغلب على ذلك الذي يطالعه المرء في المعاجم أو لدى مؤلف آخر. مما يعني أنه ينبغي معرفة المعنى الحقيقي والمعنى المجازي للكلمات في عصرها، وهذه القاعدة تصدق بشكل خاص على النصوص ذات المفاتيح التي يتطلب فهمها معرفة السياق التاريخي الذي كتبت فيه والمغزى الحقيقي للتلميحات التي تتضمنها بشأن أحداث العصر أو أشخاصه.

٢- النقد السلبي للنصوص: يتمثل النقد السلبي بإخضاع النصوص لأسئلة نقدية صارمة، وتتناول هذه الأسئلة درجة أصالتها، والمؤلف: هل هو موضوعي ؟ أمين ؟ والمؤلف: هل هو جزئي ؟ خاطئ ؟ ينطوي على مغالطات ؟ يسعى المؤلف لتحقيق صحة المعلومات المتوافرة لديه ومصداقيتها: إما عن طريق المقابلة بين الأجزاء المختلفة للنص نفسه، أو مقابلة النص مع نصوص أخرى تتناول الأحداث التاريخية نفسها، ويفضل أن تترافق هذه المقابلة مع الشك، وتقود إلى قناعة حول مدى أصالة النص ومصداقيته. ويستطيع الباحث في نهاية هذا الفحص النقدي أن يميز في النص الجوانب المتعلقة بـ:

- الرأي الشخصي للمؤلف (فيما إذا كانت وجهة نظره منحازة أو شخصية).
- الوقائع التاريخية الموضوعية والقابلة للتحقيق.

- الوقائع المشكوك فيها، أو الأسطورية، أو حتى الخرافية .

يتبنى الباحث في مرحلة النقد السلبي مقاربة تعتمد على الشك المنهجي، انطلا
من المبدأ القائل إن الوثيقة التي أمامه مشتبه بها، وأن الرواية التي يقدمها المؤلف
هي موضع ريبة: يعني ذلك أن لا شيء مؤكد، وأن كل شيء ينبغي إثباته، وحتى
روايات شهود العيان يجب أن تخضع لفحص نقدي معمق، لاسيما بغية فهم سياقا
وخلفيتها الأيديولوجية .

وأن الفحص النقدي يجب ألا يقتصر على طبيعية الوثيقة ، بل أن يتناول أيضا
محتوى كل جزء منها. ويتطلب ذلك طرح جميع الأسئلة اللازمة، وجمع أكبر قدر
من العناصر النصوصية التي تتيح الإجابة عن :

- من الذي يتكلم ؟ إلى من يتكلم ؟

- في أي عصر؟ وفي أية مناسبة ؟

- لماذا يكتب ؟ بأي هدف؟

- هل هو حر؟ موضوعي؟ نصير؟

وخلال ذلك نجد أنه يجب التقيد بالدقة والصراحة في تسجيل المعلومات
وتنظيمها، وينبغي على الباحث أن يكون قادراً على ربط وجهة النظر بشروط
قيامها، وعدم الحكم عليها استناداً إلى سياقها الحالي . هذه حال قضية الرق، على
سبيل المثال، التي اختلفت بحسب البلدان والأنظمة. ذلك أن فهم عقلية عصر ما
يعني معرفة وصنع النصوص في سياقها، ويضع الباحث نفسه في خلد الإنسان الذي
عاصرها، دون أن يتباهى معه (أي أن يحافظ على البعد النقدي الضروري للفحص
العلمي).

التركيب التاريخي:

يتوصل الباحث بعد عملية النقد إلى الحقائق التاريخية التي لا يكون لها معنى إلا من خلال تنظيمها في كل متكامل عن طريق الربط فيما بينها لتعكس صورة حية ومتكاملة عن الماضي، وتتضمن عملية التركيب الخطوات التالية (الصباغ، ١٩٩٠، ٢٣٦) .

• قيام الباحث بتكوين صورة فكرية عن كل حقيقة من الحقائق المتوافرة لديه وللهيكل العام للبحث .

• تصنيف الحقائق: يتم عادة تصنيف الحقائق استناداً إلى الظروف الخارجية لها، فكل حقيقة تاريخية تعود إلى مكان معين، وزمان معين، أو شخص ما، أو مجموعة من الناس . وتصنف أيضاً حسب طبيعتها الداخلية أي جمع الحقائق التي تعود إلى النوع نفسه من الأعمال في زمرة واحدة حقائق اقتصادية ، اجتماعية ، فكرية.... الخ

عندما يقوم الباحث بتصنيف الحقائق يلاحظ أن كل عمل إنساني هو ظاهرة فردية محددة بزمان ومكان محددين، ولكنه يلاحظ تشابه هذا العمل مع أعمال أخرى للشخص ذاته أو لأشخاص آخرين في البيئة نفسها أو في بيئات مختلفة، مما يجعل هذه الأعمال تمتلك صفات واحدة، ويطلق على الأعمال المتشابهة مصطلح عادات أو نظم والتي هي بمنزلة حقائق جماعية تمتد في الزمان والمكان.

• المحاكمة التركيبية: وتهدف إلى ملء الثغرات التي تظهر للباحث بعد عملية التصنيف، ويتم ذلك باستخدام طريقتين في المحاكمة:

- الطريقة السلبية: وتقوم على الاعتقاد بأن الحادث الناقص لم يقع ، نتيجة فقدان أية إشارة في جميع الوثائق إلى ذلك الحادث.

- الطريقة الإيجابية: وتعتمد على استنتاج حقيقة لم تشر إليها الوثائق من حقيقة ثم إثباتها بالوثائق. وتستند عملية الاستنتاج إلى المبدأ الأساسي القائم على المماثل

بين ماضي الإنسانية وحاضرها، ففي الحاضر ترتبط الوقائع الإنسانية بعضها ببعض
واقعة ترافقها أخرى إما لأن الأولى سبب للثانية، أو لأن الثانية نتيجة للأولى، أو لأن
الاثنين نتيجة حساب مشترك والوقائع الإنسانية الماضية متصلة فيما بينها بالطريقة
نفسها، فإذا توافرت حقيقة يمكن القول بوجود حقائق مرتبطة بها على غرار ما هو
موجود في الحاضر.

• ربط الحقائق ببعضها أو البحث عن علاقات قائمة بينها – التعليل:

يعد البحث عن العلاقات القائمة ذروة العملية التركيبية في التاريخ وهي النتيجة النهائية لها. وتقود عملية البحث عن العلاقات إلى مسألة التعليل أو البحث عن الأسباب. فالتعليل التاريخي يقود إلى الصيغة العامة التي تشبه القوانين، والتي تحاول أن تكشف النسيج الذي يكون ماضي الإنسان في دوافعه وروابطه. فالتاريخ لا يمكن أن يكون سرداً زمنياً للأحداث وإنما يربط بينها لتصبح كلاً متكاملاً، والمقصود بالسببية في التاريخ هو تفسير أحداثه لتكون ذات معنى، وينظر إلى مفهوم التعليل من ناحيتين: الأولى وهي البحث عن المعنى في التاريخ، نص يبحث المؤرخ في معنى حادث أو مجموعة حوادث كأن يتساءل عن أسباب الفتح العربي الإسلامي.

والثانية: وهي البحث عن معنى التاريخ ككل، وإيجاد قانون واحد يتحكم بالسير التاريخي كله، وهذا ما قام به: هيغل وماركس وتوينبي وغيرهم.

إنشاء البحث التاريخي:

أوصلت العمليات السابقة إلى مجموعة كبيرة من الحقائق ، ولا تكتمل هذه العمليات إلى بإخراج الباحث لمؤلف مدروس وتحتاج هذه الخطورة إلى عمليتين رئيسيتين هما: الصياغة التاريخية ، والعرض.

• الصياغة التاريخية: وهي تركيز وتكثيف مدون للحقائق التاريخية الجديدة ومحاولة وضعها في صيغة عامة واحدة .

* العرض: يحاول الباحث بعد عملية الصياغة أن يخرج موضوعه وحدة متكاملة، بإتباع مخطط واضح، واستخدام أسلوب كتابي ملائم.

ويمكن فيما يتعلق بمخطط البحث أن يتبع الخطوات التالية:

- مقدمة البحث: يبدأ البحث بمقدمة توضح سبب اختيار الموضوع، ومصادره الأساسية، والصعوبات التي واجهت الباحث عند جمع المادة العلمية، أو عند كتابة البحث، وأهم النتائج التي توصل إليها، وعادة ما نكتب المقدمة بعد الانتهاء من البحث، لأنه تكون قد تكونت لدى الباحث نظرة شمولية حول الموضوع.

- المتن: يحاول الباحث إيجاد وحدة بين فصول البحث المختلفة، وبين عناصر كل فصل وأن يركز على الأفكار الجوهرية في الموضوع ويتجنب الهامشية. وأن يميز الباحث بين أفكاره الخاصة وبين أفكار الباحثين الآخرين . ويمكن أن يلخص في نهاية كل فصل الأفكار الرئيسية والنتائج التي توصل إليها.

- الخاتمة: يركز الباحث في هذه الخطوات على النتائج النهائية للبحث متوخياً الموضوعية والتجرد وعدم التسرع في التعميم .

- الحواشي والهوامش: وهي المدونات الخارجية عن المتن والمرتبطة به، وتذكر في الهوامش المصدر الذي استمد منه الباحث مادته. وقد تتضمن شروحات لقضايا وردت في المتن أو إحالة القارئ إلى مكان آخر في البحث... الخ .

- الملاحق: وهي الأصول التاريخية التي اعتمد عليها الباحث أو مقتطفات منها، فتصور وتلحق بالبحث بأصالتها.

- المصادر: التي رجع إليها الباحث ويتم التمييز بين الأصول والمصادر الثانوية وترتب أبجدياً .

- فهرسة أبجدية للبحث: حيث تستخرج الكلمات الهامة من المتن (إعلام، أسماء، مصطلحات ... الخ). وترتب أبجدياً مع بيان الصفحات التي وردت فيها.

- الفهرسة العامة: وتتضمن عناوين الفصول.

أما فيما يتعلق بالأسلوب الكتابي: ينبغي على الباحث أن يحسن التعبير كتابياً، ويعرف كيفية اختيار الألفاظ التي تعبر عن الحقائق التاريخية بصدق وأمانة. وان يكتب ببساطة دون إبهام أو استطراد وان يتجنب العبارات الركيكة والمعقدة.